المكونات الاجتماعية للمجتمع الليبي

Social Components of Libyan Society

■ سالم محمد الهريشي

أستاذ مساعد، كلية الآداب، جامعة صبراتة

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث المكونات الاجتماعية لسكان ليبيا من حيث التركيبة السكانية والوقوف على التاريخ الاجتماعي للقبائل الليبية وأصولها التاريخية، فسكان ليبيا جميعهم يتكلمون العربية وعدد قليل منهم يتكلم إضافة للعربية اللغة البربرية ولغة الطوارق ويدينون جميعا بالإسلام، إلا أن الباحث لاحظ فتور في العلاقات الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد وأصبح الحديث عن الجهوية والانتماء إلى العرب أو البربر حديث الساعة، الأمر الذي دعا الباحث لإجراء هذه الدراسة معتمدا في ذلك على المنهج التاريخي، وقد كانت مرجعيته في ذلك أمهات الكتب التاريخية والاجتماعية المتحدثة على التكوين الاجتماعي والسلالي لهذا البلد الإفريقي، وما كتبه علماء الاجتماع العرب والمؤرخون وغيرهم من المختصين المحدثين والقدامى، وحددت هذه الدراسة تاريخيا ابتداء من هجرة بني هلال وبني سليم إلى الأراضي الليبية، وحددت بشريا بسكان ليبيا بشكل عام، وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن النسق القرابي في المجتمع الليبي لعب دورا هاما في تنمية العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وزاد من قوة الترابط الاجتماعي وأخذت العلاقات الاجتماعية طابعا أخلاقي وليس قانونيا.

Abstract:

This research investigates the social components of Libyan society in terms of the population structure and traces the social history and origin of the Libyan tribes. All Libyans are Muslims and speak Arabic with a minority who speak tribal languages such as Tuareg and Barber. However, the researcher noticed that there are weak so-

cial relationships between the Libyans with an increasing interest in regionalism and racism. Therefore, this study was conducted by adopting the historical approach and reviewing the outstanding historical and social references written about the social and ethnic structure of Libya. The historical scope of this study is limited to the time of immigration of Bani-Hilal and Bani-Saleem to Libya and the scope of population is limited to the Libyans. The findings of this revealed that the kinship tie played a major role in the development of social relationships in the Libyan society and that these relations are of moral nature rather than a legal one.

المقدمة:

عند الحديث عن مكونات المجتمع الليبي يتراء إلينا لأول وهلة المكونات السياسية والمكونات الاجتماعية، نظرا لتشابك المكونات ككل، والتي لا يمكن الحديث عليها بشكل موسع باعتبار أن ما يهمنا هنا هي المكونات الاجتماعية التي تشكل الإطار العام للحياة الاجتماعية لسكان ليبيا منذ القدم والتي من خلالها نشَّرح المجتمع الليبي من الناحية الاجتماعية وتركيبته السكانية من الناحية التاريخية فقد كثر الجدل حول أصول القبائل الليبية ومكوناتها الاجتماعية وهو ما شكل عبر التاريخ إمبراطوريات عظيمة كان لها دور سياسي واجتماعي على ساحل البحر المتوسط وفي العمق الإفريقي فقد تمكن الليبيون قبل الهجرات الهلالية والفتوحات الإسلامية من أن يبنوا مدن عظيمة على الساحل كان لها دور كبير في قوافل التجارة الإفريقية وهيمنتها على الساحل، حيث تأسست قبائل قوية على طول الساحل الإفريقي وفي عمق الصحراء الليبية التي تكسوها الأشجار والحشائش نظرا لغزارة وكثرة الأمطار، وقد اعتمد الباحث هنا على أمهات الكتب التاريخية والاجتماعية المتحدثة على التكوين الاجتماعي لهذا البلد الإفريقي الذي كان له دور مهم في هذا الجزء من العالم وعلى ما كتبه علماء الاجتماع العرب والمؤرخون أمثال استرابوا وهيردوتس وابن خلدون واليعقوبي واغسطيني وانتوني كاكيا وغيرهم من المختصين والمؤرخين الذين كتبوا في هذا المجال.

مشكلة البحث:

التماسك والترابط بين أفراد المجتمع الليبي تحكمه علاقات اجتماعية قائمة على قيم وعادات اجتماعية زادت من تقوية أواصر التماسك المجتمعي بين أفراده، حيث

تميزت القيم والنظم الاجتماعية بدرجة كبيرة من الاستقرار والبناء المجتمعي طيلة السنوات السابقة، فسكان ليبيا جميعهم يتكلمون العربية وعدد قليل منهم يتكلم إضافة للعربية اللغة البربرية ولغة الطوارق، والجميع يدين بالإسلام وينتمون للمذهب المالكي وبعضهم يتبع المذهب الإباضي في مدينة زوارة وجزء من سكان جبل نفوسه. وقد لاحظ الباحث فتور في العلاقات الاجتماعية وتدني في الكثير من القيم خلال السنوات الأخيرة، وأصبح الحديث عن الجهوية والانتماء إلى العرب أو البربر حديث الساعة وخاصة في الشمال الغربي لليبيا، الأمر الذي دعا الباحث لإجراء دراسة اجتماعية تاريخية للتعرف على أصول القبائل الليبية وتكوينها الاجتماعي، ونظرا لافتقار المكتبات الليبية لمثل هذه الدراسات، تحددت مشكلة الدراسة في محاولة التعرف على أصول القبائل الليبية ومكوناتها الاجتماعية معتمدا في ذلك على أمهات الكتب التاريخية والاجتماعية المتحدثة عن التكوين الاجتماعي والتاريخي لهذا البلد الإفريقي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الوقوف على التاريخ الاجتماعي للقبائل الليبية وأصولها التاريخية، ودور وأهمية القبيلة في العصر الحديث، والكشف عن أهمية هجرة بني هلال وبني سليم في تعديل التكوين السلالي في ليبيا.

أهداف البحث:

يهدف هذه البحث إلى التعرف على أصول القبائل الليبية ومكوناتها الاجتماعية، ويمكن اشتقاق أهداف فرعية من هذا الهدف هي:

1 ـ التعرف على الأثر الذي تركته هجرة بني هلال وبني سليم في تعديل التكوين السلالي لليبيا.

2 ـ معرفة النسق القرابي ودوره في تنمية العلاقات الاجتماعية في ليبيا.

3 ـ الوقوف على دور القبيلة وأهميتها في تقوية التماسك المجتمعي.

تساؤلات البحث:

1 ـ هل تركت هجرة بني هلال وبني سليم أثرا في التكوين السلالي في ليبيا؟

2 ـ هل للنسق القرابي دور في تنمية العلاقات الاجتماعية في المجتمع الليبي؟

3 ـ هل للقبيلة دور وأهمية في تقوية التماسك المجتمعي؟

منهج البحث:

تتحدد منهجية البحث وفقا لمتطلبات المشكلة المطروحة وتوظيفا لخدمة أهدافها العامة، بحيث يتلائم مع الطبيعة الخاصة لهذا النوع من البحوث، وعلى هذا الأساس سيتم الاعتماد على المنهج التاريخي باعتباره أنسب المناهج لتحقيق الهدف.

حدود البحث:

بما أن هذه الدراسة دراسة نظرية فقد حددت تاريخيا ابتداء من هجرة بني هلال وبني سليم إلى الأراضي الليبية، وحددت جغرافيا من الحدود المصرية شرقا إلى الحدود الغربية مع تونس، والحدود الجنوبية مع تشاد والسودان، وحددت بشريا بسكان ليبيا بشكل عام.

التكوين القبلي لليبيا:

تحدثنا أقدم المعلومات التاريخية عن شعب سكن الشمال الإفريقي في المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية وحتى الحدود التونسية تسمى قديما « أوليبيا » (الفاندي وفارس، 2002 :269).

حيث كان سكانها القدماء يعيشون في قبائل على طول الساحل الإفريقي وفي عمق الصحراء وكانت الصحراء الليبية كغيرها من الصحارى مزدهرة، تكسوها الأشجار والحشائش وتعيش فيها الحيوانات بمختلف أنواعها نتيجة لغزارة الإمطار وكثرتها.

وبمرور السنين... تعاقبت على ليبيا أمم مختلفة ودول كثيرة أصبح عليها تاريخ ليبيا تاريخا للصراع بين مختلف العناصر المتطلعة للسيادة على شواطئها، فأدى هذا الصراع إلى إنشاء العديد من المراكز الساحلية على طول الساحل الليبي.

فقد كتب « انتوني كاكيا Anthony. j.cachia » في كتابه (ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني) عن تاريخ ليبيا القديم (بأنه في عام 795 قبل الميلاد دخلت طرابلس تحت حكم القرطاجيين الذين أسسوا المرفأ المدن الثلاثة، صبراتة، أويا، ليبتس الكبرى، وقد أطلق اليونانيون عليها مجتمعة اسم طرابلس أي المدن الثلاث (كاكيا، 1975 : 10). وفي العصر ألبوني Punic Age ارتبطت هذه المدن الثلاثة بالمناطق الإفريقية الداخلية عبر طرق القوافل التجارية.. كما ارتبطت بقرطاجنه بطريق ساحلي طوله 512 ميلا.

(وبسقوط القرطاجيين استولى الرومان على الشمال الإفريقي واستمر حكمهم في ليبيا

حتى عام 450 بعد الميلاد وعندها استطاع البربر من الجنوب أن يهزموا الحامية الرومانية المستنزفة وان يحتلوا الشاطئ بكامله وهم بدورهم انهزموا على يد جنسريك Genseric ملك الفاندال الأول.. في السنوات العشر الأولى من القرن الخامس الميلادي) (كاكيا، 1975 : 20). واستمر الحكم الفاندالي حتى سنة 533 بعد الميلاد ثم سيطرت الإمبراطورية البيزنطية في عام 567 بعد الميلاد على ليبيا حتى القرن السابع الميلادي، أي حتى الفتح الإسلامي (كورد، 1978 : 82).

نمط حياة السكان قديما:

تحدث المؤرخ « سترابو، Strabo » عن حياة السكان في ليبيا فقال أنهم على بساطة متناهية في أنماط حياتهم وثيابهم،غير أن للرجال زوجات كثيرات وأولادا كثيرين، وهم في جوانب معيشتهم كالبدو الرحل... ويمارس ملوكهم تربية الخيول بشغف لا نظير له حتى أن عدد الأمهر يبلغ كل عام مائة ألف مهر، وتربى الأغنام من أجل ألبانها ولحومها وخاصة في المنطقة القريبة من أثيوبيا ويقصد بها السودان (سترابو، 1975 : 82).

وبعض الليبيون مزارعين يملكون أرضا يمكنها أن تنتج محاصيل وافرة، وبعضهم بدو رحل، يحصلون على غدائهم من سراب الماشية وقطعان الغنم التي يقتنونها، وبعضهم الآخر لا يطيع ملكا ولا يهتم أو حتى يفكر في العدل.. ويجعلون من الغزو شغلهم الشاغل، يهاجمون على حين غرة من الصحراء وينهبون كل ما يقعون عليه ثم ينسحبون إلى حيث أتوا، ويحي جميع الليبيين الذين هم من هذه المجموعة حياة بدائية يمضون أيامهم لا يظلهم سقف، يسكنون أرضا هي عبارة عن مستوى في جزه الأكبر وإنهم يواجهون الأخطار التي تحدق بهم مسلحين بثلاثة رماح وحجارة في أجربه من جلد .... ويتميز الجزء الذي بالقرب من قورينا (Cyrenajka) بتربة خصبة، وهو يحمل محاصيل متنوعة .. وفيه مزارع كروم شاسعة وبساتين زيتون وغابات لم يستنبتها أحد، وأنهار ذات نفع عظيم (خشيم، 1976 : 153).

الحياة الاجتماعية:

عاشت المجتمعات في الماضي حياة الانغلاق على الذات لصعوبة الاتصال ومشاقة السفر وعاش كل مجتمع بصورة أساسية على ميراث من التراث والخبرات التي تناقلتها الأجيال بعضها البعض.

فكانت البيئة الاجتماعية التي يعيشها المجتمع الليبي تتمثل في الأسرة والعشيرة

والقبلية... ويكمن استمرار هذه المؤسسات في إجماع أفرادها على قيم ومعتقدات وعادات واحدة بدون أي خلل يسببه أي فرد من أفراد القبيلة في هذه المفاهيم من شانه أن يهدد تماسك القبيلة ويعمل على تفرق أفرادها (الفنيش،1987 : 58).

فالمجتمع الليبي القديم له عاداته وتقاليده تميز بها عن بقية شعوب الأرض، وقد أورد المؤرخ هيرودوتس بعض عادات الليبيين القدماء فذكر « أن عادات كثير من البدو الرعاة أن يأخذوا أولادهم عندما يبلغون الرابعة من العمر، ويكووا عروق جلود رؤوسهم أو أحيانا عروق أصداغهم بدهن صوف الغنم، حتى لا يصاب الأطفال بالبلغم الذي ينزل من رأسه ويقولون أن هذا يجعل أطفالهم أصحاء» (خشيم، 1976 : 62).

والمرأة في القبيلة الليبية تتمتع بمكانة اجتماعية داخل القبيلة فهي عادة تظهر بثياب جميلة وتشارك في الحياة الدينية والمناسبات الاجتماعية، وتتحمل المرأة مسئولية الأسرة من حيث طهي الطعام وإحضار الحطب ... بينما يتحمل الرجل ما يستوجب عمله خارج الأسرة. فهو الذي يزرع ويحصد ويقاتل وهو المسئول عن توفير المأكل والملبس لإفراد أسرته (بازامة، 1998 :112).

اللباس الليبي القديم:

يقول المؤرخ هيردودتس أن الإغريق أخذوا عن الليبيين الثياب، ويبدو أن ثوب ودرع تماثيل أثينا نقلها الإغريق عن النساء الليبيات، غير أن لباس النساء الليبيات جلدي، وأن عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان، وأما ماعدا ذلك فإن الثوب والدرع في الحالتين سواء، بل أن الاسم ذاته الذي يطلق على الدرع في أثينا ينم عن أن كساء تماثيل هذه الألهة جاء من ليبيا، إذ أن النساء الليبيات يرتدين فوق ثيابهن جلود ماعز ذوات عذبات بعد نزع شعرها وتلوينها باللون الأحمر (خشيم، 1976 : 63).

وأوضح الفنادي في كتابه « تاريخ وحضارة الوطن العربي» أن رئيس القبيلة في ليبيا قديما، كان له لباس خاص مطرز، حيث يلبس قطعة من قماش تشبك فوق الكتف بمشبك من ذهب ويرتدي نعلا أنيقا ويثبت في شعره ريشتان تميزه عن بقية الرؤساء الأصاغر (الفاندي وفارس، 2002 : 270).

التركيبة السكانية للمجتمع الليبي منذ الفتح الإسلامي:

كان لموقع ليبيا الجغرافي والأوضاع التاريخية التي مرت بها، أثرها الواضح على تطور بنية السكان، فهي أول بلاد المغرب العربي من الشرق « تقع بين تونس والجزائر من الغرب

وبين مصر والسودان من الشرق وفي شمالها البحر الأبيض المتوسط وتمتد جنوبا حتى أفريقيا الاستوائية ». ويتوفر في هذا النطاق الجغرافي تنوع البيئات الطبيعة التي يمكن إجمالها بالشريط الساحلي بما يضمه من مدن وقرى ريفية، والنظام البدوي القائم على الرعي والزراعة البعلية. «وقد حقق هذا التنوع البيئي لسكان ليبيا فرصة أكبر للعمل والتكامل في الحياة الاقتصادية لهم كما أعطى الفتح الإسلامي لليبيا هوية عربية إسلامية ذات طابع خاص» (جحيدر، 1991 : 243).

المؤرخون القدماء:

تناول العلامة ابن خلدون في كتابه «المقدمة» سكان المغرب العربي والأصول التاريخية لهذه الأمم الذين عمروا المغرب العربي وملؤوا النواحي منه والأمصار وهم العرب والبربر، وذكر أنهما الجيلان اللذان عرف المغرب مأواهما حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداها، ولا يعرف أهله من أجيال الأدمين سواهما (ابن خلدون، 1981 : 6).

وأشار المؤرخ اليعقوبي في كتاب البلدان « كذلك إلى أصول بعض القبائل بمختلف مناطق ليبيا فذكر أن» لبرقه جبلان أحداهما يقال له الشرق، فيه قوم من العرب من الأزد، ولخم، وجذام وصدف ... وغيرهم من أهل اليمن والأخر يقال له الغرب فيه قوم غسان وقوم من جذام، والأزد وتجيب وغيرهم من بطون العرب .. وقرى وبطون البربر من زكودة، ومفرطه، وزناره» (اليعقوبي، 1983 : 100).

المؤرخون المعاصرون:

ومن المؤرخين المعاصرين الذين درسوا سكان المغرب العربي بشيء من التفصيل، وهو انعكاس للواقع المتشابه أو المتجانس للسكان في هذا النطاق «عبد الوهاب بن منصور» في كتابه « قبائل العرب» تحدث فيه عن القبائل العربية بالمغرب العربي وتقسيماتهم الاجتماعية واندماجهم مع السكان الأصليين للبلاد (بن منصور، 1995 : 225).

وساهم الإيطالي « هنريكودي اوغسطيني « في كتابه» سكان ليبيا « في انجاز دراسة سكان ليبيا بمساعدة بعض المساعدين وقد ترجم خليفة التليسي الجزء الأول من هذه الدراسة.

وتحدث « انتوني كاكيا» في كتابه ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني « عن عرض موجز لجغرافية ليبيا وعن تاريخها القديم وعن الملامح الزراعية والصناعية والتجارية

التي كان يمارسها الليبيون في تلك الفترة .. وأشار إلى أن « معظم سكان ليبيا من البربر ومنهم العرب، واليهود والأتراك وجماعات مختلفة من الأوروبيين»(كاكيا، 1975 : 10).

وكتبت «مابل لومس تود MABEL. Loomis Todo » "عن بعض ملامح طرابلس وشوارعها وحياة سكانها الاجتماعية والاقتصادية في كتابها" أسرار طرابلس (تود، 1968 : 21).

ويؤكد معظم المؤرخين أن سكان شمال إفريقيا خليط من العرب وسكانها الأصليين البربر، وقد جاء العرب من شبه الجزيرة العربية واليمن نتيجة قلة الأمطار والجفاف الذي أصاب مناطقهم، نتيجة نشوب حروب بين القبائل. أجبرت بعضهم للهجرة نحو مناطق أكثر أمانا يتوفر فيها الماء والكلأ، اللازمين لحيواناتهم، فاتجهوا إلى المنطقة الممتدة بين غرب وادي النيل وحتى المحيط الأطلسي عبر مضيق باب المندب وقناة السويس.

سكان ليبيا:

أشار الطاهر أحمد الزاوي « في كتابه» تاريخ الفتح العربي في ليبيا «أن العرب عند دخولهم الشمال الإفريقي وجدوا بقية من الفينيقيين إضافة إلى السكان الأصليين **البربر**» وجماعة من الوندال وجماعة من الروم واليونانيين أطلقوا عليهم اسم الرومان.. وقد قسم سكان ليبيا أثناء الفتح الإسلامي إلى ثلاثة عناصر هم (الزاوي، 1978 : 22).

أولا – البربر:

وهم من أهل البلاد الأصليين وجميع من اندمج فيهم من الشعوب التي اختلطت وانصهرت بهم، ويقول فيهم ابن خلدون: أن أصلهم يرجع من ولد كنعان ابن حام بن نوح، وان اسم أبيهم مازيغ يتخذون من الحجارة والطين والأشجار والأشعار والأوبار بيوتا لهم، ومكاسبهم الشاة والبقر والإبل وإنهم كالعرب ينقسمون إلى قبائل وبطون وأفخاذ وتربطهم روابط دموية ببعضهم شأنهم في ذلك شأن العرب (ابن خلدون، 1981 :23).

ونجد في كتاب «البلدان » للمؤرخ اليعقوبي أن مدينة برنيق أهلها قوم من الروم الذين كانوا أهلها قديما .. وقوم من البربر من تحلاله، وسوه، ومسوسه، ومضاغه، وواهله، وجداته، وأن بطون لواته يقول إنهم قوم لخم .. كان أولهم من أهل الشام فنقلوا إلى هذه الديار وبعضهم يقول إنهم من الروم .. وتقيم منداسه، ومحنحا، ومنطاس، مدينة سرت .. وأما أهل زويله فهم قوم مسلمون أباظية كلهم ... وبطون هواره، يتناسبون كما تتناسب العرب فمنهم بنو اللهان، وملية وورسطة فبطون اللهان بنو درما .. وبنو هرمز بان وبني

ورفله وبنو مصراته، ومنازل هوارة من آخر عمل سرت إلى طرابلس .. ومن طرابلس إلى جبال نفوسة يسكن قوم من البربر من نفوسة ومذهبهم الاباضية، ولهم قبائل كثيرة وبطون شتى» (اليعقوبي، 1983 : 103).

ويقول المؤرخ «ابن الفقيه الهمذاني» في كتابه مختصر كتاب البلدان «أن أعراض البربر هواره وزناته، وضريسه، ومغلية، ورفجومه، وأحياء كثيرة.. وكانت ديار البربر بالشام وملكهم جالوت، فلما قتله داود عليه السلام، جلت البربر إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية .. فتفرقت هناك فنزلت زناته ومغيلة وضريسه وفرصته الجبال .. ونزلت لواته أرض برقة وهي «انطابلس» ونزلت هوارة مدينة طرابلس وكانت للروم .. فجلت الروم إلى صقلية « جزيرة في البحر» ثم انتشرت البربر إلى السوس الأدنى خلف طنجه، وهي مدينه قمونية من موضع القيروان على ألفي ميل ومائة وخمسون ميلا ثم رجع الأفارقة والروم إلى مدائنهم على صلح البربر، فكرهت البربر نزول المدن فنزلوا الجبال والرمال وعادت المدائن رومية حتى افتتحها المسلمون (الهمداني، 1985 : 84).

وذكر انتوني ج كاكيا Anthony.j cahia في كتابه «ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني» بان معظم سكان ليبيا من البربر، أو من أصل بربري، أما العناصر الأخرى فكانت من العرب والأتراك وجماعة مختلفة من الأوروبيين وترجع جماعة البربر إلى العرق القفقاسي ويتميزون بالعادة ببشرة داكنة وبأعين سوداء وشعر أسود متموج .. وقد أدى اختلاط البربر بالعرب واحتكاكهم بهم إلى تغير كبير في لغة البربر وأذواقهم ومميزاتها العرقية وعاداتهم التقليدية وأكثر من احتفظ بميول البربر الأصلية وبمعالمهم في ليبيا هم مواطنون منطقة زواره وجبل نفوسة»(كاكيا، 1975 : 11). وتطلق كلمة بربر على الشعوب التي كانت تعيش قبل الإسلام من سيوه غرب وادي النيل حتى المحيط الأطلنطي في الغرب، ومن شمال نهر النيجر إلى البحر المتوسط (هانوتشكا، 1985 : 33).

وقد استطاع الباحث البولندي t.leeuki أن يلقي الضوء على السكان البربر في جبل نفوسة منذ بداية استقرار الإسلام في هذه المنطقة من خلال الأبحاث التي قدمها عن الإباضية واكتشافه لعدة مخطوطات إباضية تعود إلى هذه الفترة المبكرة، فقام سنة 1955 بنشر مخطوطة لمؤلف مجهول تحت عنوان «نسبة شيوخ جبل نفوسة وقراهم » ومن خلال هذا المخطوط والدراسة التي قدمها، ندرك أن قبائل البربر كانت تنتشر على نطاق واسع

في هذه المنطقة بعد أن دخلت الإسلام، واعتنقت المذهب الإباضي، فهم ينتشرون في مناطق نالوت، وكباو، ويفرن، بل يمتدون جنوبا حتى زويلة. (بيلافسكي، 1986 : 25).

وقد أشار الباحث أيضا إلى الدور الذي لعبه الإباضيون في نشر الإسلام جنوب الصحراء وتنشيط التجارة بين دول الخلافة العربية والشعوب التي تسكن هناك (ميكوشينسكا، 2000 : 30).

والحقيقة أننا لا نستطيع القول إن الإسلام قد انتشر في أعماق الصحراء بهذه السرعة الكبيرة، ولكن بدون شك، لم يحل القرن العاشر الميلادي، إلا وقد تواجدت مجموعات سكنية ومجتمعات تعيش جنوب الصحراء قد اعتنقت الإسلام، والفضل يرجع في ذالك إلى التجارة التي كانت تتردد بين جنوب الصحراء والساحل الليبي (زايونتشكوفسكي، 1993 : 109). وقد أشار ابن النديم إلى نشأة المذهب الاباضي وانتشاره فيما بعد في شمال إفريقيا فيقول «نشأ المذهب الاباضي على يد أبوزيد الإباضي، وقد صار لهذا المذهب أتباع كثيرون من البربر، كقبيلة زناته، وبني يفرن» (كريستي، 1998 : 23).

ويؤكد « اليعقوبي »كثرة عدد المذهب الإباضي في شمال إفريقيا للدرجة التي اضطرت فيها الدولة العباسية إلى محاربتهم وإرسال جيش على رأسه « ابوجعفر محمد بن الاشعث» لمحاربتهم، ويبدو أن ابن الأشعث طارد الأباضيون حتى جنوب ليبيا ووصل في مطاردته لهم إلى زويلة وودان في أعماق الصحراء واستطاع أن يفرق قوتهم ويقتل رئيسهم عبد الله بن الأباضي (اليعقوبي، 1983 :22)، ونستطيع القول إنه حتى بعد الفتوح الإسلامية لبرقه وتونس وكل الشمال الأفريقي ظل البربر يمثلون أغلبية سكانية في هذه المناطق، وهنا يقول الاصطخري حتى القرن الرابع الهجري كان البربر يشكلون أغلبية سكانية في كل من برقة وطرابلس حتى المغرب (الاصطخري، 1961 : 44)، فلم يكن العنصر العربي الذي وصل إلى هذه المناطق يمثل كثافة عددية كبيرة، فنعرف مثلا، أن جيوش عمرو بن العاص التي فتحت مصر لم تكن تزيد في البداية عن 4 الآلف جندي أمده الخليفة عمرو بن الخطاب فيما بعد بعدد مماثل. إلا أن الخلافة الأموية وصلت أعداد الجنود العرب التي عبرت أفريقيا إلى حوالي 40 ألف مقاتل (لفيسكي، 1969 : 21).

وأثناء الصراع الذي نشب بين الدولة العباسية والأباضيين المتمركزين في جبل نفوسه وجنوب البلاد، اضطرت الدولة إلى إرسال المزيد من الجيوش إلي ليبيا، ووصلت الجيوش

العباسية في أعداد كبيرة حتى يقال: إن عدد المقاتلين بلغ أربعين ألفاً من الجنود تحت قيادة أبو جعفر محمد بن الأشعث (ابن الأثير، 1996 : 48).

كما يبدو أن بعض العناصر القليلة من العرب قد استقرت في البلاد بل وسكنت أيضاً المدن الواقعة في جنوب الصحراء كمدينة ودان، التي يقول عنها البكري: إن العرب يسكنونها جنباً إلى جنب مع البربر وربما هم من نسل العرب الذين جاءوا مع عقبة ابن نافع الفهري الذي وصلت جيوشه إلى زويلة. وما زالت مجموعة من المقابر القائمة هناك التي تعد من الآثار الإسلامية التي ترجع إلى العصور الأولى للفتح الإسلامي وتسمى بمقابر الصحابة (ابن عبدالحكيم، 1971 : 19). كما يذكر ياقوت الحموي أن قبر الشاعر العربي دعيل الخزاعي يوجد في زويلة أيضاً (اوغسطيني، 1998: 61).

ولا شك أن البربر قد دخلوا الإسلام بأعداد كبيرة وتّم أسلمة « Slamisacje » الشمال الأفريقي بشكل أسرع من تعربية « Arabisacje »، وربما ظل الوضع الديموغرافي على هذا الشكل حتى بدء السيادة الفاطمية.

توزيع البربر الحالي:

يقول ابن عبد الحكم في كتابة «فتوح مصر وأفريقيا» وهو أقرب المؤرخين في أحداث هذا العصر، أن البربر نزحوا من الحدود الشرقية لمصر وانتشروا في المغرب وأما زناته ومغيله فقد توجهتا إلى المغرب وسكنتا الجبال، وأن لواته قد استقرت ببرقه، وأن هواره قد استقرت في لبدة « Leplus » ونفوسه بمدينة صبراته (البكري، 1403 : 199).

ويقول الباحث اتوري روسي مشيرا إلى النصوص العربية الجغرافية إلى أنه في نهاية العهد الروماني والبزنطي وقعت حركة هجرة إلى الشمال الأفريقي، انطلقت من الشرق وحمله زناته وهواره، إلى المغرب حيث امتزجا بالقبائل البربرية المقيمة في تلك المنطقة وتغلبوا عليها، وفي القرن السابع والثامن عادت عدة قبائل من زناته وهواره إلى إقليم طرابلس في فترة اندلاع أعنف الثورات البربرية وأشدها (الحموي، 1977 : 106).

وفي كتابه معجم البلدان يقول ياقوت الحموي: إن البربر تشتمل على قبائل كثيرة تسكن من برقة في الشرق إلى المغرب على البحر المحيط ويمتد سكناها حتى بلد السودان وهي قبائل لا تحصى. وقد اختلف في نسبهم وزعم البعض أن أصلهم من العرب وهذا ليس صحيحاً (الحموي، 1977 : 368).

والرأي نفسه يذكره البلاذري إذ يقول: يزعم البربر بأنهم ولد بر ابن قيس وليس هذا صحيحا إذ لم يكن لقيس ولد يقال له بر(البلاذري، 1983 : 222).

ويرى ابن الجوزي أن البربر ينحدرون من ولد حام ما عدا قبائل صنهاجه الذين يرجعون إلى حِمَير (المراكشي، 1968 : 349).

وقد أشار ليفسكي « Levucki » إلى الدور الذي لعبه الأباضيون في جبل نفوسه في التجارة مع بلاد السودان جنوب الصحراء، وكذلك في نشر الإسلام في هذه الأماكن(ليفسكي، 1955 : 18)، وقرب القرن العاشر الميلادي انتهت هذه التنقلات، وانتظمت هذه القبائل في مواقعها أو قاربت على الاستقرار (زكورمورفسكي، 1989 : 11).

وفي الوقت الحالي هناك مجموعة من القبائل البربرية تعيش في جبل غريان كما توجد في واحات أوجله وسوكنة وتمسه، وعلى الساحل الشمالي للبحر المتوسط، فنجدهم يتركزون في زواره، ومن أهم هذه القبائل أوجله وورفله الذين يعشون بالغرب من طرابلس وبالرغم من أنهم يتكلمون العربية إلا أنهم يمثلون نسبة 23 ٪ من سكان ليبيا (ميكوشينسكا، 2000 : 60).

وينسب «ابن خلدون» سكان منطقة جبل نفوسه وحتى الساحل الشمالي الذي ساده العنصر البربري إلى قبائل هواره وبطونها المتنوعة التي منحت أسماءها على المناطق والنواحي المستقرة بها كغريان ومسلاته (كورد، 1978 : 45).

ثانيا – الفينيقيون:

لقد تم تأسيس صبراتة، أويا، ولبدة، أثناء الهجرات الفينيقية الأولى القادمة من سواحل الشام، ثم أصبحت هذه البلدان فيما بعد مستعمرات قرطاجية، ويعتقد أن المدن الثلاثة قد شكلت أثناء السيطرة القرطاجية اتحاداً فيما بينها وظلت هناك آثار واضحة للحضارة القرطاجية حتى بعد سقوط قرطاجنة كالكتابات البونقية المتعددة، بالإضافة إلى استعمال اللغة البونقية إلى جانب الرومانية والإغريقية كما ظل تأثير الحضارة القرطاجية ماثلاً في الأسماء وألقاب الوظائف والمعتقدات الدينية (اتوري، 1991 :65).

أما القبائل التي تعيش في الدواخل بعيداً عن المراكز المحمية، فقد كانت مستقلة عن الحكومة القرطاجينية وترتبط بها غالبا بروابط التحالف والاتفاق (زكومورفسكي، 1989 : 12).

إن استمرار بقاء اللغة البونقية، ساعد على انتشار اللغة العربية، التي استطاعت في قرون قليلة أن تحتل مكان اللغة البربرية، التي لم يبقَ منها سوى أجزاء متفرقة منعزلة في

الواحات والجبال .. ومن جهة أخرى فإن اعتناق الاعتقادات البونيقية الفينيقية التي تميل إلى فكرة التوحيد، قد هيئ الأفارقة لقبول الدين المسيحي ثم التلائم مع الدين الإسلامي بعد الفتح العربي (زكومورفسكي، 1989 : 34).

ثالثا – الرومان:

أطلق العرب أثناء الفتوحات الإسلامية اسم الرومان على مجموعة الوندال والروم واليونانيين الذين استوطنوا ليبيا منذ القديم (الزاوي، 1978 : 28). فقد سيطر الرومان على ليبيا سيطرة تامة سنة 64 بعد الميلاد واستمر حكمهم حتى عام 450 بعد الميلاد، ثم سيطر الوندال على شمال أفريقيا، فاحتلوا طرابلس سنة 456 بعد الميلاد واستمر حكمهم حتى سنة 533 بعد الميلاد عندما احتل الرومان من جديد شمال أفريقيا (كاكيا، 1975 : 19).

ولئن كان حقا ما قيل أن الرومان والوندال لم يؤثروا في التكوين السلالي لهذه البلاد، كما لم تتأثر اللغة والعادات بطابعهم، فمن المؤكد أنهم خلفوا معالم كثيرة نلاحظها من خلال الإنشاءات العسكرية، والأعمال العامة، والأعمال الفنية، وأسماء البلدان، وعلى الأخص الرومانية، وهي منتشرة في كل مكان على طول الساحل وفي منطقة الجفارة، وحتى في بعض المدن خارج المدن الثلاثة تم العثور على منازل ريفية وزراعية وفسيفساء (اتوري، 1991 : 88).

ويلاحظ على سكان ليبيا تعدد الأجناس فيها واختلاطهم وذلك بسبب وضعها الجغرافي ونتيجة لظروفها التاريخية، فمنذ القدم سكنت سلالات مختلفة، فكان فيها البربر وهم السكان الأصليون كما كان فيها الفينيقيون واليونان ثم الرومان، وبعد الفتح العربي الإسلامي، استوطنت فيها قبائل عربية هاجرت إليها من الجزيرة العربية عبر مصر، وطبعت البلاد بطابعها (الدجاني، 1971 : 22).

دخول القبائل العربية إلى ليبيا:

يتميز سكان ليبيا في وقتنا الحاضر بأنهم متجانسون إلى حد كبير، فجميعهم يتكلون العربية، وهناك عدد قليل منهم يتكلمون اللغة العربية والبربرية ولغة الطوارق ويدينون جميعهم بالإسلام، ويتبعون المذهب المالكي، بينما يتبع بعض الأهالي في الجبل الغربي ومنطقة زواره الساحلية المذهب الأباضي (الدجاني، 1971 : 217) .

ونشأ هذا المذهب أثناء نشأة المنافسات التي قامت في العشر سنوات الأولى لظهور الإسلام بين على بن أبي طالب رضي الله عنه والمؤيدين لخلافة معاوية بن أبي سفيان، وتأسس في ذلك الوقت مذهب الاباضية، نسبة إلى الإمام عبد الله بن إباضي المرعي، وهو عربي الأصل توفي سنة 750م، وبمجيء الفاتحين العرب إلى أفريقيا في القرن السابع اتبعه عدد كبير من البربر ويبدو أن تبرير ذلك راجع إلى أنهم رفضوا السيادة الخارجية عليهم وكانوا غير راغبين للخضوع إلى العرب، مثلما أنهم غير راغبين للخضوع لغيرهم من الفاتحين (أتوري، 1991 : 24).

وعند الرجوع قليلا لبداية الفتوحات الإسلامية يحدد « كارل بروكمان « تاريخ عبور العرب إلى القارة الأفريقية وفتح مصر في ديسمبر سنة 635 م تحت قيادة عمرو بن العاص، ولم يكن في نية القائد العربي الاستمرار في الزحف غربا، إلا أنه سرعان ما هزم القوات البيزنطية وحاصر الإسكندرية ووصلت جيوشه إلى شرق الأراضي الليبية وبالتحديد برقة (دانتسكي، 1997 ب : 56).

وما لبث أن طالب الخليفة عثمان بإمدادات من مقاتلي القبائل العربية خاصة عند زحفهم نحو الإسكندرية حتى وصلت أعداد هذه القوات إلى 10 ألاف مقاتل ثم إلى 200 ألف مقاتل، واستطاعت هذه القوات أن تصل إلى برقة في سنة 642 – 643 (دانتسكي، 1997 أ : 161).

وقد شكل البربر في ذلك الوقت تحالفا قويا مع الروم لمقاومة الفتح الإسلامي على شمال أفريقيا، وفي الوقت نفسه الذي انتهى فيه وجود الروم كقوة عسكرية في المنطقة ظل البربر يمثلون شوكة في جنب القوات الإسلامية، إلا أن العرب استطاعوا أن يجعلوا من القيروان مركزا لغرض سيطرتهم على القبائل البربرية سنة 670 م (حوراني، 1995 : 63).

وشكلت مدينة القيروان المشهورة، أول قاعدة إسلامية في الغرب، وهي المهد الأول للدعوة الإسلامية في المنطقة، وقد قاد عقبة بن نافع خلال الفترة من 669 – 675م حملة طويلة وجد الإسلام فيها تأكيد وجوده وترسيخ كيانه في هذه البلاد، واعتنق كثير من البربر الإسلام وأنشئت حاميات ومراكز للجند في الأماكن المهمة من البلاد، وفي سنة 647 وخلال خلافة عثمان استطاع واليه عبد الله بن أبي السرح أن يصل إلى منطقة المدن الثلاثة Tripolitcnie ويفرض الجزية على أهالي هذه المناطق (حوراني، 1995 : 68).

ويشير بروكي إلى أن عقبة بن نافع استطاع أن يكون تحالفا من البربر الأمر الذي مكنه في سنة 670 من القضاء على الوجود البيزنطي في ليبيا، إلا أنه لم تنشئ الفتوحات العربية في البداية قواعد ثابتة وراسخة في ليبيا، بل كان يتطلع القائمون إلى الغنائم، والسيطرة السياسية، والعسكرية، وكانوا لا يبقون كثيرا في المناطق التي يفتحونها وأحيانا يتم إسناد بعض المهام الإدارية لغير المسلمين وبذلك حدثت ثورات بربرية متعددة (ابن عبدالحكيم، 1971 : 104).

ويعتمد Ph.Hilti على ما ذكره المؤرخ اليعقوبي بقولة « وبعد فتح برقة ووصول الجيوش العربية إلى طرابلس وجزء من تونس توافدت وفود القبائل البربرية على عاصمة الدولة الإسلامية واستقبل الخليفة عثمان رؤوسا القبائل البربرية وعلى رأسها قبيلة لواته "Lawateh" (ميكوشينسكا: 2000، 179). وبدأت فعلا فكرة الفتح العربي المنتظم للمغرب سنة 665 – 765 بقيادة عقبة بن نافع الذي استطاع إخماد ثورة البربر بزعامة » كسيله – Kusaila – والمكلة الكاهنة واستمر بعد وفاته القادة العرب في فتح بلدان المغرب العربي طيلة الثلاثين عاماً التالية (اوغسطيني، 1998 : 38).

وبالفتح العربي اصطبغت بذلك ليبيا كغيرها من بلدان المغرب العربي بالصبغة العربية الإسلامية وأصبح تاريخها جزء من تاريخ الدول العربية التي ضمت إليها بقية أجزاء المنطقة إلا أن عروبتها لم تتأصل إلا بعد الهجرات العربية الكثيرة التي قدمت في القرن العاشر الميلادي (الدجاني، 1971: 26).

الهجرات الهلالية:

ذكر « المقريزي» صاحب كتاب « الخطط » أنه في ولاية الوليد بن رفاعة الفهري على مصر، نقلت قبيلة قيس إلى مصر ولم يكن فيها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من قبائل فهم وعدوان، فوفد ابن الحجاب على هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي فسأله أن ينقل إلى مصر منهم بيوتا، فأذن له هشام بثلاثة الأف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على ألا ينزلوا بالفسطاط، فعرض لهم ابن الحجاب، وأنزلهم الحوض الشرقي وفرقهم فيه، وبعث إلى البادية، فقدم عليه مائه أهل بيت من بني نظير، ومائه أهل بيت من بني سليم، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع وبلغ ذلك بقية قومهم، فبعثوا إليهم ووصل خمسة مائة أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة، فأتاهم نحو خمسة مائة أهل بيت،

فصار ببلبيس ألف وخمسة مئة أهل بيت من قيس، ونزلوا بأرياف مصر واستوطنوا فيها واتخذوا من الزرع معاشا وكسبا» (المقريزي، 1960 : 150). ولقد قدرنا متوسط عدد كل بيت (عائلة) بخمسة إلى ستة أفراد وهذا يعني أن متوسط عدد العرب الذين وفدوا آنذاك إلى إفريقيا يصل من 35 إلى 42 ألف فرد.

وذكر ذلك أيضا العلامة «ابن خلدون» فقال بني هلال ساروا الديار المصرية أثناء حروب القرامطة، ثم ساروا إلى إفريقيا في خلافة المنتصر الفاطمي لحرب « المعز بن باديس » ثم زاحمهم بنو سليم فساروا إلى المغرب (ابن خلدون، 1981 : 644).

وبذلك تعد هجرة قبيلة بني هلال وبني سليم من أهم الهجرات العربية الجماعية إلى شمال إفريقيا فمنذ قيام بني سليم بعبور النيل سنة 1049 متجهين نحو المغرب كانت قبائل الاثبج، وبنو رياح، في مقدمة العابرين ... ثم لحقت بهم قبيلة بني زغب، وقد استمرت فيما بعد هجرات القبائل العربية إلى إفريقيا رغم تحول الولايات العربية إلى الطرود، وعدوان، بني غطفان، وسلول، وبني مره، الذين لحقوا بهم فيما بعد وقد هاجرت للاستقرار في برقة في منتصف القرن الحادي عشر ميلادي (اوغسطيني، 1968 : 43).

أهمية هجرة بني هلال وبني سليم:

كان نزوح العرب من قبائل بني هلال وبني سليم نتيجة الخلاف والصراع بين الفاطميين والزيديين ونتيجة لتزايد عددهم، والرغبة في التوسع لدى هولاء البدو العرب وجدوا في المغرب متنفسا لإشباع رغبة الغزو والسيطرة ويعتقد أن قبيلة بني هلال بدأت تحركاتها من الجزيرة العربية مع بداية الثورة القرمطية ضد العباسيين، ونتيجة لضغوط من الجيش العباسي اضطرت للتحرك نحو مصر في هجرة جماعية كبيرة، هي والقبيلة الأخت بني سليم وبني عمومتهم في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي بدوره وجههم نحو الحدود الغربية لمصر لمهاجمة دولة بني زيري في تونس وشرق الجزائر وبشكل عام نستطيع أن نقول إن غزو الهلاليين لشمال إفريقيا كان اندفاعاً كبيراً غطى المساحة بين برقة إلى تونس والجزائر حيث دمروا في طريقهم القرى والمدن وحتى الحقول لم تسلم من تدميرهم ... فالهجرة الكبيرة لبني سليم وبني هلال تركت أثرها الديمقرافي على سكان هذه المناطق واستقر جزء كبير من هذين القبيلتين في ليبيا وتونس والجزائر ووصل البعض منهم حتى المغرب (لفيسكي، 1955 : 167)، وتذكر المصادر أنه في عهد عبد المؤمن

الموحدي استطاعت مجموعات من هاتين القبيلتين عبور مضيق جبل طارق إلى الأندلس بعد أن انتظموا في جيش دولة الموحدين، ويبدو أن سياسة عبدالمؤمن في ذلك هي إبعاد خطرهم عن بلاد المغرب العربي نحو الأندلس (المراكشي، 1968 : 225).

كان لهجرة العرب من بني هلال وبني سليم إلى شمال إفريقيا أثره الواضح في تعديل التكوين السلالي واللغوي بالمنطقة، وشكل حدثا ذا أهمية قصوى في جلب تعديل عنصر قوي بالمنطقة، واستطاع القضاء في بعض الأحيان على العنصر البربري الغالب في تلك المنطقة، وهز كيانه، ويجب التذكير بالغزوات التي تبعتها من الشرق إلى إفريقيا الشمالية عدا مصر، لم تحمل سوى عدد قليل من الجند ورجال الدولة الذين كانوا يعودن غالبا إلى مواطنهم الأصلية، أما في القرن الحادي عشر فقد شكلت الهجرات العربية المتمثلة في بني هلال وبني سليم هجرة حقيقية تمكنت من التغلب على البربر وخاصة في برقة وطرابلس وتونس (فرنسيسكو، 1978 : 96).

انتشار العنصر العربي في ليبيا وشمال إفريقيا:

استطاع بنو هلال أن يسيروا في الأراضي الليبية دون مقاومة تذكر حتى وصلوا إلى تونس وحاصروا القيروان وكونوا هناك تحالفات مع القبائل البربرية ووصلوا إلى أواسط المغرب (حوراني، 1995 : 66)، وتوزعت قبيلة بني هلال على حسب خصوبة أرضها وبأس تلك القبائل ... حيث تفرقت أقلها بأسا في المناطق غير المنتجة، وهو ما كان له أثره السيئ على هذه المناطق التي سيطرت عليها هذه القبائل تحت قوة الحاجة، حيث ألحقت بها أضرار بليغة بعمرانها واقتصادها مع سيادة اللصوصية والغارات واتخاذها كمواطن قدم لغزو المناطق الخصبة، أو نحو واحات الجنوب مصاحبة معها كل أثارها السلبية والاجتماعية والاقتصادية، وظل الصراع القبلي مظهرا رئيسيا من مظاهر حياة هذه القبائل (الحراري، 1998 : 286).

وقد استمر امتداد العنصر العربي عبر تلك الفترة فبعد اكتساحهم لبرقه وسرت بلغوا إقليم طرابلس، ونلمس تجمعهم في تاجورا وباديتها، ونجد كثافتهم تقل كلما اتجهنا غرباً، بل نجد حضور بعض العناصر العربية متوغلة غرب طرابلس قرب زواره، ويؤكد ابن خلدون انتشار القبائل العربية من ودان وزويلة واجدابيا في الجنوب حتى سرت وشاطي البحر في الشمال وهي مساكنهم يتجولون فيها، بقوا على بدواتهم (ابن خلدون، 1981 : 60)، وإذا تتبعنا العنصر العربي في الداخل باتجاه الجنوب نجد أن القبائل العربية توغلت إلى

الداخل تعقبا للمراكز الاقتصادية وأصبحت بذلك أوجله وودان حكرا على العنصر العربي بها (الحراري، 1998 : 287).

أما بالنسبة لفزان فإن أهلها البربر تعايشوا مع العناصر العربية سعياً للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية، وأما ببرقه والجبل الأخضر فقد برزت سيادة العنصر العربي بشكل كبيير معتمدين في حياتهم على النمط القبلي البدوي المتراوح في حركته بين الجبل والساحل مهتمين بتربية الماشية، والتحكم في الطرق التجارية المارة على مقربة من مناطق استقرارهم، وفي المنطقة الوسطى، أي سرت فكان المظهر القبلي سائدا هناك بمختلف أشكاله النظامية لضعف التحضر بالمنطقة، وابتعادهم على كل إشعاع حضاري حيث ظلت الزعامات القبلية مسيطرة على الوضع حتى بدأت ما بين المنطقتين برقة، وطرابلس، كفراغ عمراني اجتماعي وبمثابة موقع اتصال عن شرق العالم الإسلامي وغربه (اوغسطيني، 1998 : 34).

مراحل التدفق العربي نحو الشمال الإفريقي:

يمكن تقسيم مراحل التدفق العربي نحو الشمال الإفريقي وخصوصا ليبيا إلى ثلاث مراحل هي:

أولا – مرحلة ما قبل تاريخ الفتح العربي الإسلامي:

« يعتبر الجنس البربري من أقدم الأجناس في الشمال الإفريقي وقد امتزجت دماؤه بكافة الشعوب الذين قدموا إلى ليبيا منذ القدم، كالفينيقيين والإغريق ويعتقد بعض المؤرخين العرب أن البربر القدماء قد اختلطوا بالعرب حيث امتزج الدم العربي بالدم البربري كما يورد البعض منهم كالإدريسي والتيجاني والصولي، الذين يعتقدون أن قبيلة كتامة وصنهاجه ينتميان إلى أصل عربي وقد تبربرتا وأصبحتا قبيلتين بربريتين بسبب اختلاطهما بقبائل البربر» (البكري، 1403 : 199).

وقد أشار البلاذري إلى معلومة مهمة تفيد باعتناق أكبر القبائل البربرية للديانة الإسلامية في فترة مبكرة عصر الخلافة الأموي إذ يذكر أن قبيلة لواته قد دخلت أغلبها في الإسلام حتى أن الخليفة عمر ابن عبد العزيز، دعا كل مسلم عربي لديه امرأة من لواته أن يتزوجها، وألا تعامل فتيات البربر كسبايه للعرب الفاتحين وبذلك امتزج الدم العربي بالبربري (البلاذري، 1977 : 223)، وذكر ذلك ابن خلدون أيضا فقال: « إن افريقش بن قيس بن صيفي لما رجع من غزو المغرب ترك هناك من قبائل حمير، صنهاجة، وكتامه، فهم إلى

الآن بها وليسوا من نسب البربر، قال ذلك الطبري، والجرجاني، والمسعودي، وابن الكلبي، والسهلي، وجميع النسابين » (ابن خلدون، 1981 : 95).

ثانيا – مرحلة الفتوحات العربية الإسلامية:

وتأتي هذه المرحلة فيما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلادي، وتميزت هذه الفترة بتدفق الهجرات العربية صحبة جيوش الفتح العربي كما تدفقت هذه الهجرات في تلك المرحلة لدوافع سياسية ومذهبية وقد تركت هذه المجموعات البشرية أثاراً اجتماعية من خلال انتساب العديد من القبائل بالمنطقة إليها (بازامه، 1998 : 52).

ثالثا – مرحلة هجرة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر:

يرجع علماء الأنساب العرب قبيلة بني هلال إلى صعصعه بن عامر بن مضر أي من عرب الشمال الذين يطلق عليهم العرب المستعربة (هانوتشكا، 1985 : 122).

ونتيجة للضغوط من الجيش العباسي في بداية الثورة القرمطية ضد العباسيين اضطرت هذه القبائل للتحرك نحو مصر في هجرة جماعية كبيرة، وبشكل عام نستطيع أن نقول إن غزو الهلاليين إلى شمال إفريقيا كان اندفاعا كبيرا غطى المساحة من برقة إلى تونس والجزائر، وقد شكلت هجرة بني هلال وبني سليم إلى المغرب أهمية قصوى إذ جلبت للمنطقة عنصرا قويا وكبيرا من العرب الذين كان لهم أثر واضح في تعديل التكوين السلالي، والوضع اللغوي بالمنطقة (شافلارسكي، 1968 : 167).

وعلى مر السنيين اختلط العرب بالسكان الأصليين لليبيا، وأصبحت غالبية السكان تدين بالإسلام وتتبع المذهب المالكي، وتتكلم اللغة العربية، واحتفظ البربر فضلا عن معرفتهم باللغة العربية بلغتهم البربرية، واتبع بعضهم المذهب الإباضي، وخاصة في زواره، والجبل الغربي، ومن هنا كانت ليبيا في الوطن العربي جسر اتصال بين مشرقة ومغربه، وكانت بالنسبة لأوروبا بوابة أساسية لإفريقيا على حد تعبير كوبر، (وواحدة من أقدم البوابات إلى إفريقيا، وفيما تتقاطع خطوط التجارة من يورنو وتشاد ووادي، وتبستي، وتمبكو، ودافور، وجميع البلاد الخصبة في السودان إلى موانى ليبيا على البحر المتوسط) (الدجاني، 1971 : 24).

توزيع القبائل العربية في ليبيا:

ارتبطت ليبيا منذ أقدم العصور بالمنطقة التي تحيط بها شرقا وغربا التي هي اليوم

الوطن العربي وتداخلت فيها فلم يكن بينهما وبين بلاد المنطقة سدود، وتعرضت جميع هذه البلاد لتيارات تاريخية واحدة كما اشتركت كلها في المساهمة الإيجابية للتأثير على هذا التاريخ وبناء حضارات المنطقة وتعد ليبيا بحكم موقعها الجغرافي مركز التقاء خطين رئيسين يصل أحدهما بين شرق المنطقة وغربها أي بين آسيا الغربية ومصر من جهة، وبين الشمال الإفريقي من جهة أخرى، ويصل الخط الأخر بين أوربا من جهة، وبين قلب إفريقيا من جهة أخري، وقد أثر هذا الموقع الجغرافي في تاريخ البلاد عبر العصور فهو أولا: يجعلها حلقة رئيسية بين أجزاء الشرق والمغرب العربي، ثانيا: يضعها في مواجهة الساحل الأوربي في حوض البحر الأبيض المتوسط، ثالثا: يتوغل بها في قارة إفريقيا مساحة كبير تصل إلى ألفي كيلو متر (الدجاني، 1971 : 23).

توزيع العرب الهلاليين:

كان توزيع العرب الهلاليين داخل ليبيا حسب قوة كل قبيلة وبأسها فيهم، فقد قامت القبائل القوية بالمناطق المنتجة وخاصة الجبل الأخضر ببرقه، في حين اضطرت القبائل الأقل قوة للعيش في المناطق القليلة الإنتاج، وتحت تأثير مواجهتهم لظروف الحياة القاسية، كانوا مضطرين للامتداد نحو المناطق الغربية الخصبة وباتجاه الواحات الجنوبية (اوغسطيني، 1968 : 44).

لم تتم الهجرات الهلالية كلها في وقت واحد، ولكنها كانت عبارة عن موجات متتابعة فالقادمون الجدد يطردون الذين تقدموهم ويستولون على كل ما بأيديهم، فقد احتلت بنو رياح طرابلس وقابس وهم من الطلائع الأولى لبني هلال ثم تحولوا تدريجيا نحو الغرب وجاء بدلهم بنو زغبه، وتحولوا هم أيضا نحو الغرب، بعد أن ضايقهم بنو سليم الذين استقروا في طرابلس(فرنسيسكو، 1978 : 101). وذكر « ابن خلدون » أن بني سليم بنو زغب بن مالك بن بهته، كانت منازلهم مابين قابس وبرقة، وهم إخوة لبني سليم بن دباب الذين سكنوا فزان وودان، أما بنو أحمد فسكنوا إجدابيا وجهاتها، وسكن بنو قره وهم إحدى بطون بني هلال برقة ثم انتقلوا إلى المغرب (ابن خلدون، 1981 :639).

القبائل الليبية في العصر الحديث:

أشار أتوري روسي Ettore Rossi إلى أن من أهم فروع قبيلة بني سليم الذين استقروا بطرابلس وبرقة قبيلة بني دباب وبطونها "أولاد سليمان، أولاد احمد، بنو جابر" ومنهم

تنحدر قبيلة "العوامر" التي تضم "المحاميد، الجوازي، النوايل" أما أولاد سالم فتضم "العلاونة، الحوامد، بني زغبة" ومنهم قبيلة "المقارحة" (ترجمة التليسي، 1991 : 102).

المجتمع البدوي مجتمع منعزلٌ بعيد عن سلطة الدولة، وقد طبعته البيئة بطابعها، فحكمته العادات والأعراف والتقاليد البدوية، واتصفت البدو بالخشونة والصلابة، وكانت حياتهم بسيطة يعيشون في خيام ويقومون بالرعي والزراعة ويتنقلون في مناطقهم مع تتابع فصول السنة، وكانوا بسبب عزلتهم جاهلين بالعالم الخارجي المحيط بهم، إلا أنهم على الرغم من جهلهم لديهم خصال نبيلة تنال إعجاب من سكن بينهم (الدجاني، 1971 : 220)، وضم المجتمع البدوي عدداً من قبائل العرب المحدثين منهم: العواقير، والعبيدات، والبراعصة، والحساونة، والدرسه وهم يعيشون في برقة وأولاد على الوافدون من مصر إلى بنغازي، وزويَه في الكفرة، وأولاد بليَل في غدامس، والحطمان في وادي الشاطئ، وبني جهم، والقذاذفة، وأولاد بوسيف، والحميدات، والعجيلات، والعلالقة، وورفلة، وورشفَانة، والرحيبات حتى حدود تونس، والدراهيب، وأولاد بوسيد، وأولاد على، وأولاد بوماره، ومرغنه، والفرجان، وأولاد يوسف، وأولاد مهاد وناجي، وأولاد بومسلم (الدجاني، 1971 : 221).

اتصفت القبائل الليبية المعاصرة بذات الصفات العربية القديمة ... وتوزعت القبائل الليبية، وخاصة في شرقها، إلى قبائل حرة، وقبائل موالية (لوجلي، 1995 : 27).

1 – **القبائل الحرة**: وهي تسيطر على الأرض وتهيمن عليها.

2 – **القبائل والبطون الموالية**: وهي قبائل وعشائر تابعة للقبائل الحرة وقد حدد النظام السائد قديما الأشكال المختلفة من الارتباط التبعي للحلفاء ذوي المستوى الأدنى بالفئة العليا للقبيلة، فكان هناك، نظام الولاء القبلي، نظام الحلف، ونظام الجوار.

أ ـ **نظام الولاء القبلي**: وهو قبول أعضاء جدد في القبيلة، يصبحون موالي لأسرة، أو قبلية، ويعدون من أفرادها بالولاء وليس بالدم، وقد يكونوا هولاء أفراد أو عشائر أو قبائل، فيكتسبون اسم العشيرة أو القبيلة، وتسري عليهم كافة الحقوق والواجبات التي تقرها القبيلة الأصل.

ب ـ **نظام الحلف**: يخص الأشخاص أو الأسر أو القبائل، التي تنظم للقبيلة الأصل، ويكون لهولاء الحق في حمل الاسم العشائري للقبيلة، وحمل شجرة نسبها بصفة

شكلية فيسمح للحليف التقرب للقبيلة ضمن حقوق الأصغر، ولا يسمح له بالتطلع إلى المساواة الكاملة معها.

ج ـ **نظام الجوار**: يخص هذا النوع من النظام المنبوذين من القبائل الأخرى والغرباء، وبهذا النظام تضمن لهم القبيلة حق الملاذ والحماية، فالقبيلة القائمة والضامنة له تتحمل مسؤولية الغريب مثلما تتحملها بالنسبة لأبناء قبليتها، وتسري عليه عصبة القبيلة مثلما تسرى على أبنائها.

ومن القبائل التابعة كانت قبائل المرابطين: وهم الذين ينسبون أنفسهم إلى نسب الرسول ﷺ والمرابط يقصد به الناسك الزاهد، التقي، الورع الذي يعيش حياة زاهدة، والمرابطين، تتولاهم القبيلة التي توفر الحماية والرعاية اللازمة لهم أثناء الحـروب، والمنازعات، بالإضافة إلى توفير المواد الغذائية في حالات المجاعة، ويدفع هولاء الحبوب والحيوانات لأجل حمايتهم ورعايتهم، وهذا التبادل بين الطرفين يُعد سمة مميزة بين القبائل المرابطين والقبائل التابعين لهم (اغسطيني، 1968 : 68)، وتنقسم قبائل المرابطين إلى:

المرابطين بالصدفة: وهم أولئك الذين يدفعون الجزية للقبائل التابعين لها مقابل حمايتهم.

المرابطين بالبركة: ويطلق على هولاء تسمية «الأشـراف» وذلك لدلالة على نسبهم الشريف وهم يتميزون بصفة اجتماعية، وهي القيام بحسم المنازعات القبلية بهذه الصفة الاجتماعية، وتوطيد العلاقات الودية بين المتنازعين.

والقبائل الحرة يعدون أنفسهم غير ملزمين بمجموعة من الواجبات نحو حلفائهم، وينظرون إلى المرابطين الذين يعشون على أرضهم أنهم غير مكافئين لهم وأنهم أناس من الدرجة الثانية.

دور النسق القرابي في العلاقات الاجتماعية:

يختلف مستوى النسق القرابي العائلي «النظام القرابي» باختلاف نوعية السكان، فهو يختلف في المدينة عن الريف، ويختلف عن الريف في البادية والمصطلحات المستعملة للدلالة على الوحدات القرابية نفسها، تختلف باختلاف المجتمعات العربية كما أن بعض الوحدات القرابية الموجودة في البادية لا توجد في الريف، والتقسيمات القرابية في الريف لا تنطبق على سكان المدن، وفي أشد الأنظمة القرابية تعقيداً، تقسم القبيلة إلى عشائر، وتقسم العشيرة إلى قسمين أو أكثر تدعي فرق، وتقسم الفرق إلى أجزاء تدعى أفخاذ، والفخدة تتجزأ إلى

عدد من الحمايل وتتكون هذه من عائلات، تضم عدداً من العائلات الزوجية أو الأبوية وهذه التقسيمات القرابية هي نسبة، بمعنى أن هذه الوحدات تأخذ معناها وأهميتها في علاقاتها مع الوحدات الأخرى، وتقسم القبيلة في ليبيا إلى لحمة، ثم إلى عائلة، ثم إلى بيت، وقسمت أيضا في بعض المناطق الشرقية إلى عائلة (لحمة) ثم إلى بيت (هلال، 1967 : 42).

فاللحمة هي وحدة قرابية كبيرة العدد نسبياً، تربط أفرادها علاقات اجتماعية قوية بالرغم من أنها غير متلاصقة اجتماعياً أو معيشياً، ونلاحظ ذلك في حالة وفاة أحد أفرادها أو إصابته بمكروه. (فلكل بطن من القبائل، وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، فإن هناك داخلها عصبيات أقوى واشد التماماً من النسب العام، مثل عشيرة واحدة أو بيت واحدة أو إخوة من أب واحد) كما قال ابن خلدون.

وبذلك يعد مفهوم النسق القرابي، ذا أهمية في تحديد العلاقات والأدوار الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، فهو يشير إلى العلاقات الاجتماعية المبنية على صلات الدم ويندرج تحت هذا المفهوم العلاقات الاجتماعية التي تتكون بطريقة المصاهرة (قنوص، 1993 :112).

وعليه فالعلاقات الاجتماعية الثابتة والمستمرة في المجتمع العربي الليبي الحالي اتخذت شكل انساق ونظم اجتماعية، مكنته من تقوية أواصر الترابط بين أفراده، فتميزت الأعراف والقيم الاجتماعية بدرجة كبيرة من الاستقرار والبناء في الحياة الاجتماعية أدت إلى وجود نوع من التماسك والتوافق بين أجزاء المجتمع ومكوناته، فالقيم والمعايير التي انتقلت إليه من جيل إلى جيل أثرت في سلوك أفراده وحددت موقعهم في الحياة الاجتماعية، فغرست فيهم صفات وراثية وزودتهم بأفكار واتجاهات كان لها الأثر في تبؤ مكانة اجتماعية مرموقة بين المجتمعات العربية.

كل هذه الأنماط التي تحدد نوع وشكل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، عملت على خلق مجتمع متوافق اجتماعيا حافظ عليها المجتمع الليبي، فأصبحت المؤسسات الاجتماعية المتمثلة في الأسرة والعشيرة والقبيلة مرتبطة بقيم ومثل عربية مواكبة لحركة التغير الثقافي والاجتماعي الذي شمل كل المجتمعات العربية، فالقبيلة كونت سلوكا لأفرادها تحول إلى تربية اجتماعية أفضل وأنبل من أي تربية مدرسية، فهي المدرسة الاجتماعية التي نشاء أفرادها منذ الطفولة على تشرب مثلاً عليا تحولت إلى سلوك في حياتهم بترسيخ تلقائي كلما كبر الإنسان.

إلا أن هذا التطور الثقافي والاجتماعي أصاب العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بنوع من الفتور واللامبالاة في التنحي عن بعض القيم والنظم الاجتماعية التي تبناها المجتمع في إطار الثقافة العربية الإسلامية آخذين في الاعتبار أن التقدم الحضاري يتطلب مثل هذه التغيرات التي تسلخ الثوب العربي الإسلامي عن المجتمع المبني على قيم ونظم عربية وإسلامية.

فالنسق القرابي بين الأفراد داخل المجتمع الليبي لعب دورا مهماً في تكوين علاقات اجتماعية مبنية على روابط دموية، إلا أنها تختلف باختلاف نوعية السكان، فهناك بعض الوحدات القرابية في البادية والريف ليس لها مكان في المدينة، وبما أن المجتمع البدوي تقريبا أصبح كله يقيم في مدن وقرى لا تختلف إمكانياتها الحضارية عن المدن الكبيرة، وتناقص المجتمع البدوي بشكل واضح، عما كان عليه، كان لزاما على الأفراد التعايش في جماعات ليس بالضروري أن تكون لها العلاقات الاجتماعية القوية بالشكل الذي كانت عليه القبيلة سابقا، فظروف العمل والتجارة والصناعة فرضت على الأفراد الإقامة في أحياء تضم مختلف الشرائح الاجتماعية فتطورت العلاقات الاجتماعية بينهم وفقا للتغير الثقافي والاجتماعي للمجتمعات وحافظوا على روابطهم الاجتماعية المبنية على رابطة الدم وخاصة في المناسبات العامة.

نتائج البحث:

1 – القبائل الليبية قبائل عربية لها جذور تاريخية في حركة تاريخ الوطن العربي.

2 – المجتمع الليبي مجتمع عربي إسلامي تجسدت فيه قيم ونظم اجتماعية على مر الزمن.

3 – حافظ المجتمع الليبي على عاداته وقيمه وأعرافه الاجتماعية والعربية والإسلامية.

4 – لعب النسق القرابي في المجتمع الليبي دورا في تنمية العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وزاد من قوة الترابط الاجتماعي.

5 – اتخذت العلاقات الاجتماعية بين الأفراد شكل انساق ونظم اجتماعية كانت على درجة كبيرة من الأهمية في الحياة الاجتماعية.

6 – أنماط العلاقات تختلف من مجتمع لأخر طبقا للثقافة السائدة في كل مجتمع وداخل المجتمع نفسه.

7 – العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الليبي أخذت طابعا أخلاقيا وهذا يعني أن عملية الضبط الاجتماعي أخذت شكلا أخلاقيا وليس قانونيا.

8 – تطور الأسرة الليبية من وحدة اجتماعية كبيرة (العائلة) إلى وحدة اجتماعية صغيرة (الأسرة النواة) إلا أن الأفراد فيها بالرغم من انتمائهم للأسرة النواة، لازالت تربطهم روابط اجتماعية بإخوتهم وأبناء عمومتهم وأبناء عشيرتهم.

9 – أصبحت القبيلة وحدة اجتماعية واحدة، ولكنها وحدة دم أكثر من أي تكوين أخر.

قائمة المصادر والمراجع:

ابن الأثير، (1996)، الكامل في التاريخ، بيروت، لبنان، دار الكتاب العالمية.

ابن خلدون، (1981)،المقدمة، ط4، بيروت، دار القلم.

ابن عبد الحكيم، (1971)، فتوح مصر، ط2، بيروت، معهد الإنماء العربي.

اتوري روسي، (1991)، ليبيا منذ الفتح العربي حتى1911، ترجمة خليفة التليسي، ط3، الدار العربية للكتاب.

الاصطخري، أبواسمان بن محمد، (1961)، المسالك والممالك، تحقيق عمر جابر ألحثي، القاهرة، دار القلم.

اوغسطيني، هنريكودي، (1998)، سكان برقة، ترجمة إبراهيم احمد المهدي، بنغازي، ليبيا.

اوغسطيني، هنريكودي، (1998)، سكان ليبيا، قسم طرابلس الغرب، ترجمة خليفة التليسي، طرابلس، الدار العربية للكتاب.

بازامة، محمد مصطفى، (1998)، ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، طرابلس، ليبيا، دار الفكر العربي.

البكري، ابوعبيد، (1403)، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، بيروت، عالم الكتب.

البلاذري، (1977)، فتوح البلدان، ط2، بيروت لبنان، دار مكتبة الهلال.

بن منصور، عبد الوهاب، (1995)، قبائل العرب، مراكش، المغرب، المطبعة الحديثة.

بيلافسكي، كوران، (1986)، ترجمة القرآن، وارسو، مطبعة انستبتون فيدافنيشي.

تود، مابل لومس، (1968)، أسرار طرابلس، طرابلس، ليبيا، مطبعة الفرجان.

جحيدر، عمار، (1991)، أفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، الدار العربية.

الحراري، محمد، (1998)، ليبيا عبر كتاب الرحالة المغاربة في القرن السادس عشر والسابع عشر، طرابلس، ليبيا.

الحموي، ياقوت، (1977)، معجم البلدان، بيروت، دار حماة.

خشيم، علي فهمي، (1976)، قراءات ليبية، طرابلس، ليبيا، دار مكتبة الفكر.

دانتسكي، (1997أ)، المعلومات الأساسية عن الإسلام، الجزء الأول.

دانتسكي، (1997ب)، حضارة الإسلام، مطبعة وزارة التربية، وارسو.
الدجاني، أحمد صدقي، (1971)، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي، المطبعة الفنية الحديثة.
الزاوي، الطاهر أحمد، (1978)، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، طرابلس، لبنان، الدار العربية للكتاب.
زايونتشكوفسكي، (1993)، أشياء عن علم الاجتماع، وارسو، مطبعة سيجر.
زكورمورفسكي، (1989)، حضارة المغرب: تاريخ المجموعات الايثولوجية، وارسو، مطبعة جامعة.
سترابو، نصوص ليبية، (1975)، جمع وترجمة، علي فهمي خشيم، ط2، طرابلس، دار مكتبة الفكر.
شافلارسكي، (1968) معرفة القارة السوداء، وارسو، مطبعة b.f.n.
الفاندي، صلاح الدين وفارس، عمر، (2002)، تاريخ وحضارة الوطن العربي في العصور القديمة مطابع أثينا.
الفنيش،أحمد علي، (1987)، أصول تربية، طبعة جديدة، طرابلس، ليبيا، الدار العربية للكتاب.
قنوص، صبحي عمر، (1993)، علم دراسة المجتمع، ط2، طرابلس، النشر والتوزيع والإعلان.
كاكيا، انتوني، (1975)، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني، 1835 ـ 1911، ط2، طرابلس، ليبيا، دار الفرجاني.
كريستي، شولتر، وآخرون، (1998)، أعياد الديانات العظمى، وارسو، مطبعة قيبوم.
كورد، فرانسيسكو، (1978)، ليبيا إثناء العهد العثماني، ترجمة خليفة التليسي، طرابلس، ليبيا.
لوجلي، صالح الزوي، (1995)، توطين البدو، بنغازي، ليبيا، منشورات جامعة قاريونس.
ليفسكي، (1955)، تاريخ الاباضية في الشمال الإفريقي، الجزء الأول، وارسو، المطبعة العلمية.
ليفسكي، (1969)، الشمال الأفريقي، وارسو، المطبعة العلمية.
المراكشي، (1368)، المعجم في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد العربان وآخرون، القاهرة، مطبعة الاستقامة.
المقريزي، تقي الدين بن احمد، (1960)، كتاب الخطط، تقديم مصطفى زياد، القاهرة.
ميكوشينسكا وآخرون، (2000)، شعوب ولغات العالم، وارسو، المطبعة العلمية.
هانوتشكا وآخرون، (1985)، شعوب إفريقيا، وارسو، مطبعة جامعة وارسو.
هلال، جميل، (1967)، دراسات في الواقع الليبي، طرابلس، ليبيا، مكتبة الفكر.
الهمداني، ابن الفقيه، (1985)، مختصر من كتاب البلدان، بيروت، دار الكتاب.
هيرودوتس، (1975)، نصوص ليبية، جمع وترجمة علي فهمي خشيم، ط2، طرابلس، ليبيا، دار مكتبة الفكر.
اليعقوبي، احمد ابن يعقوب، (1983)، كتاب البلدان.